فتح الأندلس

في ظل هذه الظروف والأحداث التي تحدّثنا عنها كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى، واستولوا على ثغر طنجة، وأشرفوا على شواطئ الأندلس من الضفة الأخرى من البحر، وما بقي من فتح أفريقية سوى ثغر سبته الذي يقع مقابل طنجة في الطرف الآخر من اللسان المغربي، وكانت سبته قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان تُحبط كل محاولة لأخذها.

وقد مكث موسى بن نُصير في القيروان، وخلّف طارق بن زياد في طنجة فتطلع طارق نحو حصن سبته، الذي عجز المسلمون عن الاستيلاء عليه أيام عقبة ابن نافع، وأيام موسى بن نصير أيضًا.

وكان موسى بن نصير يتوقُ إلى افتتاح هذا الثغر المنيع، الذي يحكمه يوليان والذي بدوره قد احتك بالعرب المسلمين وخاصة عندما وصل موسى إلى طنجة، ولمّا أحسّ يوليان بقوة المسلمين عمل على كسب ود طارق بن زياد أمير طنجة، «وكان طارق بن زياد رجلاً سياسيًا بعيد النظر، فلعله صادق يوليان؛ ليستعين به على إخضاع من تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون»[١].

ويقول ابن عبد الحكم[٢]: «فراسل طارق يوليان، ولاطفه حتى تهاديا».

وبالطبع فإن طارق لم يلاطف يوليان ليتّقي شرّه، وإنما ليستفيد منه فيما هو أهم من سبته، فقد كانت أنظار المسلمين تتطلع إلى الأندلس.

وبينما كان موسى بن نصير يتطلع إلى افتتاح سبته؛ لتكون نقطة انطلاق إلى الأندلس، بينما هو على هذه الحال إذ جاءته رسالة من الكونت يوليان نفسه يعرض فيها تسليم معقله، ويدعوه إلى فتح الأندلس، وجرت بينهما المفاوضة

(١) «فجر الأندلس» د/ حسين مؤنس ص٥٥.

(٢) «فتوح مصر واخبارها».

حول هذا العمل الكبير - وذكرت المصادر أنهما اجتمعا في سفينة في البحر، وقيل أن يوليان استدعى موسى إلى سبته، وهنالك وقعت المفاوضة بينهما - وقد استجاب موسى بن نصير لدعوة الكونت يوليان فقد وجد أن ما يعرضه يوليان فرصة عظيمة وهائلة وخاصة عندما عرض عليه تسليم سبته وباقي معاقله، وتقديم سفنه لنقل المسلمين في البحر، ومعاونته بجنده وإرشاده[١].

عندئذ كتب موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين يبلغه بأمر هذا العرض، وجاء رد الوليد أن يختبر هذا العرض بالسرايا والحملات الصغيرة في البداية وألاّ يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر، برغم أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمار المعارك البحرية.

ظل موسى بن نصير قابعًا بطنجة يُعد العدة للفتح، في حين اعتقد يوليان وحلفاءه أن دور موسى والعرب هو المساعدة لاستعادة حكمهم لأسبانيا، ولم يقصدوا بدعوة موسى أن يمتلك أسبانيا وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم، رجعوا إلى أفريقية[٢].

استمع موسى بن نصير لنصيحة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وبدأ بمحاولة صغيرة، فجهّز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك، فعبروا البحر من سبته في أربع سفن قدمها يوليان إلى البقعة المقابلة التي سُمّيت جزيرة طريف باسم قائد الحملة، وذلك في رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليو سنة ٧١٠م)، وجاست الحملة الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان، فأصابت كثيراً من الغنائم، وقُوبلت بالإكرام والترحيب، وشهدت كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها، ثم عادت في أمن وسلام، وقصّ قائدها على موسى نتائج رحلته؛ فاستبشر بالفوز، وجدّ في أهبة الفتح.

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان جـ١ ص٣٩.

(٢) «ابن الأثير» انظر جـ١ ص٢١٤.

وفي (رجب سنة ٩٢هـ - إبريل سنة ٧١١م) جهز موسى بن نصير جيشًا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي، وكان يومئذ حاكمًا لطنجة، وكان طارق بن زياد «رجلاً طويلاً أشقر، بعينيه حَوَل وبيده شلل»[١]، وكان ضخم الهامة، وفي كتفه الأيسر شامة[٢]، وكان طارق كما ذكرنا مولى لموسى بن نصير، وقيل إنه من سبي البربر، وقيل إنّه بربري من بطن من بطون نفرة[٣]، وقد تلقى طارق الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله، وهو أول اسم عربي إسلامي في نسبته، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهي إلى نغزة، وهي القبيلة التي ينتمي إليها[٤].

ومن حيث الجندية كان طارق جنديًا عظيمًا ظهر في غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته، وقدّر موسى مواهبه لمقدرته واختاره لحكم طنجة وما يليها، وهي يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطرابًا، ثم اختاره لفتح الأندلس، فعبر البحر من سبته بجيشه تباعًا في سفن يوليان القليلة، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي مازالت تحمل اسمه إلى اليوم وهو «جبل طارق» وذلك في يوم الإثنين (الخامس من رجب سنة ٩٢هـ - ٢٧ إبريل سنة ٧١١م)[٥].

وقد اقتحم طارق المنطقة المجاورة غربًا بمعاونة يوليان وإرشاده، وزحف على ولاية الجزيرة التي كان يحكمها تيودمير القوطي عامل ردريك[٦]، واحتل قلاعها، بعد أن هَزم شراذم من القوط تصدت لوقفه، وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم، وكان لزريق (ردريك) يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج في الولايات الشمالية، فهرع إلى طليطلة شاعرًا بفداحة

(١) «الإمامة والسياسة» جـ٢ ص٧٤.

(٢) «نفح الطيب» للمقري جـ١ ص٨٩.

(٣) «البيان المغرب» لابن غذاري جـ٢ ص٦.

(٤) المصدر السابق جـ٢ ص٦.

(٥) «نفح الطيب» للمقري جـ١ ص١١٩.

(٦) ردريك هو لزريق، كما تسميه المراجع العربية.

الخطر المحيط بعرشه وأمته وبعث قائده أديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته، ولكن طارقًا هزمه واخترق المنطقة الوسطى والغربية في المثلث الأسباني، والتي تُسمى الفرنتيرة معتزمًا السير صوب عاصمة القوط.

معركة وادي لكّه:

كان لزريق أميرًا شجاعًا وافر المقدرة والعزم، ولكنه كان طاغية يُثير بقسوته وصرامته كثيرًا من السخط والكراهية، وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف، وكانت أسبانيا قد مُزّقت شِيَعًا وأحزابًا، كل حزب أو شيعة تتطلع إلى السلطة، وكان أهم هذه الأحزاب وأقواها حزب العرش القديم الذي يلتف حوله ولدي «غيطشة» وهما «أبه» و«شتمبرت»، ومع ذلك فقد اعتصم القوط عند الخطر الداهم بنوع من الاتحاد، واستطاع لزريق (ردريك) أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة، وحشد هؤلاء أتباعهم ورجالهم، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدّره بعض الروايات بمئة ألف مثل ابن الأثير[١] تزيد أو تقل قليلاً.

وسار لذريق نحو الجنوب للقاء المسلمين، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة، فكتب إلى موسى يستنجد به، فامدّه بخمسة آلاف مقاتل، فبلغ المسلمون اثنى عشر ألفًا، وانضم إليهم يوليان في قوة صغيرة من أتباعه وكان القوط يفوقون عدد المسلمين، فهم أضعاف عددهم، وكان المسلمون يُقاتلون في أرض عدوهم التي تحتوي على هضاب وطبيعة وعرة شاقة، ولكن قائدهم البطل طارق بن زياد تقدّم إلى هذه الموقعة الحاسمة بعزم الأبطال وشجاعة الأسود، فكانت المعركة على ضفاف نهر وادي لكّة أو وادي بكة[٢] في هذا السهل الصغير الذي تحدّه من الجنوب سلسلة من التلال العالية، وعلى ضفاف بحيرة خندة ونهر بارباتي – هناك تلاقى جيش المسلمين وجيش القوط.

---

(١) «الكامل في التاريخ» جـ٤ ص ٢١٤، وانظر «نفح الطيب» للمقري جـ١ ص١١٢، الذي يقدره سبعين الفا.

(٢) انظر «دولة الإسلام في الاندلس» د/ عنان جـ١ ص٤٢.

ووقف القائد المسلم طارق ابن زياد يقول لجنوده: أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم - والله - إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مائدة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلاّ سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرًا، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت.

وإني لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعًا فيه للنفوس، أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم بأوفى من حظي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في القصور ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانًا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا وأختانًا، ثقةً منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان؛ ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة...

ثم قال: إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أُنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه، فإن قُتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشل ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير، وإياكم وإياكم أن ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهانة والمذلة، وقد أحلّ الله لكم

ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، والله معكم ومعينكم ... وهاأناذا حامل حتى أغشاه[١] فاحملوا بحملتي[٢].

هنالك تلاقى جيش الإسلام وجيش النصرانية، وذلك في (الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ هـ - ١٧ يوليه سنة ٧١١ م) وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة، وفي اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة، وظهر لزريق في الميدان في حلل ملوكية فوق عرش تجره الخيل القوية.

واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين القوى النصرانية الضخمة، وبين القوة المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام، ولكن الجيش القوطي كان رغم كثرته مختل النظام منحل العرى، وكان يقود جناحيه إيفا وسيزبوت خصما ردريك، وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الناقمين، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر، وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب، فكانت الخيانة تُمزق جيش القوط شرَّ ممزق، واستمال يوليان والأسقف أوباس وهما في صف المسلمين كثيراً من جند القوط، وبثا بدعايتهما في الصفوف الموالية للزريق كثيراً من عوامل الشقاق والتفرق، فأخذ كل أمير يسعى بسلامة نفسه، وتمكن الجيش الإسلامي - على ضآلة عدده - بجَلَده وثباته واتحاد كلمته، من جيش القوط، فلم يأتِ اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق بن زياد وجنده، وهُزم القوط شر هزيمة، وشتتوا ألوفًا في كل صوب.

أما ردريك آخر ملوك القوط - أو لزريق كما يسميه العرب - فقد اختفى عقب الموقعة، ولم يُعثر له على أثر فيقول ابن الأثير[٣] أنه غرق في نهاية الموقعة، فقد رمى نفسه مختاراً في النهر[٤]، وقد أثقلته الجراح، ومات قتيلاً أو غريقًا في المعركة.

---

(١) يقصد لزريق ملكهم.

(٢) د/ عنان «دولة الإسلام» جـ١ ص٤٧.

(٣) «الكامل في التاريخ» جـ٤ ص٢١٤.

(٤) «نفح الطيب» جـ١ ص١٢١.

وعلى إثر هذه الموقعة الحاسمة التي هُزِمَ فيها الجيش القوطي شر هزيمة ومُزِّق تمزيقًا، ساد الرعب في أوساط القوط، فامتنعوا بالحصون والجبال، وقصدوا إلى الهضاب والسهول، وذاعت أنباء النصر في طنجة وسبته، وما جاورهما من أراضي العدو، وزحف طارق بجيشه شمالاً، وكانت بقية الجيش القوطي قد اجتمعت عند «أستجة» لتحاول رد الجيش الفاتح، فالتقى الجيشان هناك ثانية، وهُزم القوط مرّةً أُخرى، ولم يبقَ إلاّ أن يستولي الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأُخرى.

وكان يوليان وأصحابه إلى جانب المسلمين، يعاونهم بالنصح والإرشاد كما قدّمنا، ففي أستجة وضعت خطة السير وتقرر أن يسير طارق بنفسه إلى طليطلة عاصمة المملكة القوطية، وأرسل طارق مغيثًا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة في سبعمائة فارس، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة، و أرسل حملات أُخرى إلى غرناطة والبيرة ومالقة، فافتتحت مالقة وفرَّ سكانها إلى الجبال، ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى البيرة وغرناطة، فحوصرت غرناطة قليلاً وفُتحت، ثم فُتحت البيرة.

وكان المسلمون يضمون إليهم في كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها، ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقًا نحو ولاية مرسية، وكانت تسمى يومئذ تيودمير (أو تدمير) باسم أميرها، وقاعدتها مدينة أوريولة، وكان تيودمير جنديًا كبيرًا، وافر العزم والبأس، فالتقى بالمسلمين ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة، هلك فيهم معظم رجاله، فارتدّ إلى أوريوله، وامتنع بها، وعرض النساء، حسبما تقول الرواية، على الأسوار في أثواب الرجال إيهامًا بكثرة جنده، واستطاع بثباته وجلده أن يعقد الصلح مع المسلمين بشروط حسنة أنقذت بها مدينته من السبي والجزية [1].

(١) «ابن الأثير» جـ٤ ص ٢١٥، وابن عذارى في «البيان» جـ١ ص١٣.

وقد نصّ الصلح على ما يلي:

« نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير عيدوس »

« بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد العزيز إلى تدمير، أنه نزل على الصلح، وأنّه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه، ولا أحد من النصارى من أملاكه، إنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساؤهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحترق كنائسهم ما تَعَبَّدَ ونَصَحَ، وأن الذي اشترط عليه أنّه صالح على سبع مدائن، أوريوالة وبلنتله، ولقنت، ومولة، وبقسرة، وأنه، ولورقة، وأنه لا يأوي لنا عدوًا، ولا يخون لنا أمنًا ولا يكتم خبرًا علمه، وأنه عليه وعلى أصحابه دينارًا كل سنة، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط خلاً، وقسطي عسل، وقسطي زيت، وعلى العبد نصف ذلك، . . كُتب في أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة . . شهد على ذلك . . . » .

وسار طارق في بقية جيشه إلى طليطلة مخترقًا هضاب الأندلس وجبال سيرا مورينا (جبل الشارات) التي تفصل بين الأندلس وقشتاله، بإرشاد يوليان وأصحابه، وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسهم، ولم يبقَ بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فاستولى طارق عليها، وأبقى على من بقي من سكانها، وترك لأهلها عدّة كنائس، وترك لأحبارهم حرية إقامة الشعائر الدينية، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا.

وتابع طارق زحفه شمالاً، فاخترق قشتالة ثم ليون في وهاد ومفاوز صعبة، وطارد فلول القوط حتى استرقة، فلجأت إلى قاصية جلّيقية واعتصمت بجبالها الشامخة، وعبر طارق جبال اشتوريش (استورياس) .

« وهنا تذكر الرواية العربية أن طارقًا انتهى إلى مدينة المائدة خلف جبال

استوري، فاستولى على مائدة سليمان بن داود، وهي خضراء من زبرجد حافاتها منها، وأرجلها ثلاثمائة وخمسة وستون. ويُقال إن هذه المائدة غنمها الرومان من المشرق أو بيت المقدس في بعض غزواتهم، ثم نقلوها إلى روما، فغنمها منهم القوط حين افتتحوا روما، ثم أحرزها العرب عند فتح أسبانيا»[١].

وذكر ابن الأثير أن أحد ملوك أسبانيا في عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة[٢].

وذكر صاحب «الروض المعطار» وبعض مؤرخي الإفرنج: «أن هذه المائدة من نفائس ملوك القوط، وأن العرب عثروا عليها في كنيسة طليطلة»[٣].

وواصل طارق بن زياد سَيْرَهُ حتى أشرف على ثغر «خيخون» الواقع على خليج بسكونية (غسقونية) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته، وقد وصل إلى مياه المحيط، ثم عاد إلى طليطلة، حيث تلقى أوامر موسى بن نصير بوقف الفتح، وكان قد مرّ عام على دخوله أسبانيا.

موسى بن نصير في الأندلس:

ذكرت مصادر عربية كثيرة[٤] أن موسى بن نُصير لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده طارق بن زياد، فلما علم بمدى فوزه ونصره، أُعجب به إعجابًا شديدًا، ولكن هذا الإعجاب تحول إلى حسد وغيرة، وخشي أن يُنسب هذا الفتح العظيم إليه دونه، فكتب إليه ألاّ يتقدم حتى يلحق به، ويتوعده بالعقاب إذا توغل بغير إذنه.

---

(١) انظر «دولة الإسلام في الأندلس» د/عنان - الهامش ص٥١ جـ١.

(٢) «الكامل في التاريخ» جـ٤ ص٢١٢.

(٣) «الروض المعطار» ص٥.

(٤) من هذه المصادر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير جـ٤ ص٢١٥، و«ابن عبد الحكم» ص٢٠٧، وابن خلدون جـ٤ ص١١٧.

أما ابن عذارى[١] فقد ذكر تعليلاً دقيقًا عندما قال: بأن طارقًا خالف الأوامر الصادرة إليه بألاّ يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط.

وهذا التعليل قريب إلى الدقة لما هو معروف عن موسى بن نصير من الحذر والحيطة واستماعًا لنصيحة الوليد بن عبد الملك من أن التوغل كثيرًا دون حساب لقوة العدو واختباراً لها قد يأتي بالكوارث والهزائم، وهذا لا يجعلنا نستبعد الغيرة؛ فموسى بن نصير بشر ككل البشر.

عبَرَ موسى بن نصير البحر إلى أسبانيا في جيش قوامه ثمانية عشر ألفًا منهم عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر، وحملهم في سفن صنعها خصيصًا لهذا الأمر، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان، وذلك في (رمضان سنة ٩٣ هـ - سنة ٧١٢م)، واستهل زحفه بمدينة شذونة فاستولى عليها، ثم سار إلى تريونة، وهي يومئذ من أمنع حصون الأندلس، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه، ثم قصد بعدئذ إلى أشبيلية أكبر وأعظم قواعد بلاد الأندلس، فافتتحها بعد أن حاصرها شهرًا، ثم سار إلى ماردة وحاصرها فترة طويلة، وقُتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين في كمين دَبَّرهُ النصارى، وعندما اشتدّ الحصار على أهلها، دعا القوم إلى السلم، فارسل أهلها إليه رسلاً، فدخلوا على موسى أول يوم من المفاوضات، فإذا هو أبيض شعر الرأس واللحية، لقد ذهب أثر خضابه؛ فظهر الشيب، ولم يتفق لهم معه على أمر، وعاودوه في اليوم الثاني - وكان قبل عيد الفطر بيوم واحد - فإذا هو قد صبغ لحيته، فجاءت كما وصفها المقرئ في نفح الطيب: «كضرام العرفج» أي كالنار في لونها، والعرفج شجر شديد الالتهاب، أي أصبحت لحيته حمراء اللون، فعجبوا من ذلك، وعاودوه يوم الفطر (العيد) فإذا هو قد سوَّدَ لحيته، فازداد تعجبهم منه؛ لأن أهل الأندلس لم يعرفوا الخضاب ولا استعماله قبل الفتح الإسلامي.

---

(١) «البيان المغرب» جـ٢ ص١٥ وما بعدها.

فقالوا لقومهم: إنّا نقاتل أنبياء، يتخلّقون كيف شاؤوا، ويتصورون في كل صورة أحبوا، كان ملكهم - يقصدون موسى - شيخًا، ثم صار شابًا، والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله، فما لنا به طاقة. فاذعنوا عند ذلك، وأكملوا صلحهم، وفُتحت المدينة يوم عيد الفطر الأول (سنة ٩٤هـ) [١].

وتمّ الصلح على أن تكون أموال الغائبين والكنائس غنيمة للمسلمين ودية لمن قُتل منهم[٢].

وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة، فالتقى بطارق على مقربة منها، وكان قد سار إلى استقباله فأنّبه وبالغ في إهانته، وزجه مصغرًا إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان، وقيل بل هَمَّ بقتله[٣].

وقد انفرد ابن عبد الحكم برواية مضمونها: «أن طارقًا استجار بمغيث الرومي وكان عائدًا من الأندلس إلى المشرق، ووعده بمئة عبد مكافاة إذا هو أبلغ أمره إلى الوليد بن عبد الملك، فقام مغيث بالرسالة، وبادر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يُطلق سراح طارق ويتوعده إذا أساء إليه، وحمل مغيث هذا الكتاب إلى الأندلس، فأخرج موسى عن طارق ورده إلى منصبه»[٤] وذكر أن طارقًا ترضى موسى فرضيَ عنه وقبل عذره[٥].

موسى وطارق معًا على الطريق:

وضع موسى وطارق خطة لافتتاح ما بقي من أسبانيا، ثم زحفا نحو الشمال الشرقي واخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وافتتحا سرقسطة وطركونة

---

(١) انظر «نفح الطيب» جـ١ ص٢٥٣.

(٢) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان جـ١ ص٥٢.

(٣) هذه الأقوال وردت في «الكامل» لابن الأثير جـ٤، و«نفح الطيب» للمقري جـ١ ص١٢٧، وابن عبد الحكم ص٢٠٨، و«جذوة المقتبس» للحميدي ص ٦.

(٤) ابن عبد الحكم ص٢١٠.

(٥) «تاريخ الطبري» جـ٢ ص٩٨.

وبرشلونة وغيرها من المدائن والمعاقل، ثم افترق الفاتحان، فسَار طارق نحو الغرب ليغزو جلّيقة، وليتم القضاء على فلول القوط، وسار موسى شمالاً فاخترق جبال البرنية (جبال ألبرت أو البرتات أو الممرات) وغزا ولاية لانجدوك التي كانت تابعة إذْ ذاك لملوك القوط.

واستولى على قرقشونة كاركاسون، وأربونه (ناربون). ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادي الرون (رذونة) حتى مدينة لوطون (ليون) فاضطرب أُمراء الفرنج، وأخذوا في الأهبة لرد الغزاة ويُقال أن المعارك الأُولى بين العرب والفرنج وقعت في تلك السهول على مقربة من أربونة.

عندئذ كتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يُحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة ويأمره بالعود، في الوقت الذي فكر فيه القائد الجريء أن يخترق أوروبا غازيًا فاتحًا، وأن يصل إلى الشام من طريق القسطنطينية، وأن يفتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها، وهذا ما يقوله المؤرخ العربي ابن خلدون – عن حلم الفاتح العربي العظيم موسى بن نصير – .

يقول ابن خلدون : « وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم، مستلحمًا لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة »(١).

ولم يكن موسى بن نصير غافلاً عن حلمه الكبير فقد كان يُقدِّر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرية يؤيده من البحر أسطول قوي، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج، ثم يقصد مملكة اللومبارد في شمالي إيطاليا، فيخترقها فاتحًا إلى روما قاعدة النصرانية، فيفتتحها ويقضي فيها على كرسي النصرانية، ويُتابع سيره بعدئذ شرقًا إلى سهول الدانوب مقتحمًا ثغور القبائل الجرمانية التي تسيطر على ضفافه، ثم يخترق أراضي الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية، فيستولي

(١) ابن خلدون جـ٤ ص١١٧ .

عليها، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصداً إلى دمشق، فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال، كما اتصلت من طريق الجنوب.

ويقول الدكتور عنان[١] : «ولم يكُ ثمّة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم، فقد كان الإسلام يومئذ في ذروة الفتوة والقوة والباس، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلّت..».

ثم يضيف: «ولم يكن حلمًا وإغراقًا ما تصوره موسى بن نصير واعتزمه، ولكن سياسة الإحجام والتردد التي اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية والتي كادت تحول دون فتح أسبانيا، أودت بذلك المشروع البديع، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يُحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة ويأمره بالعودة، فارتدّ موسى مُرغمًا آسفًا، ولكنه تمهّل في العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التي اعتصمت بها فلول القوط، ويُطهّر أسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة، فاخترق جليقية، واستولى على معظم معاقلها، ومزّق كل قوة تصدت لمقاومته، ولم يبقَ من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيمها «بلابيوس»، ولجأت إلى قاصية جليقية، وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقًا، ويأمرهما بتعجيل العود»[٢].

ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمى إليه من خلاف موسى وطارق، وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار الجديدة المجهولة التي افتتحوها.

ولربما كان خوف الوليد بن عبد الملك من استقلال موسى بن نصير بهذا الملك الجديد البعيد النائي عن بلاد الخلافة باعثًا لاستدعائه إلى دمشق.

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» جـ١ ص٥٤.

(٢) المصدر السابق.

ولربما كان أيضًا ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والغنائم والتحف التي اغتُنمت من الأندلس لربما كان ذلك باعثًا لاستدعاء موسى إلى دمشق.

ويذكر المؤرخون أن استدعاء الوليد لموسى كان بلا ريب خطرًا على مستقبل الإسلام في الأندلس، ذلك أن هذه القوى النصرانية الصغيرة التي نجت من المطاردة، واعتصمت بصخور جليقية، لم تلبث أن نمت وقويت، وكانت منشأ المملكة النصرانية التي قامت في الشمال، ولبثت قرونًا تكافح دولة الإسلام في أسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها.

وفي نفس الوقت الذي كان يُستدعى فيه موسى إلى دمشق، كان عبد العزيز ابن موسى قد افتتح منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية، وأخمد الثورة في أشبيلية وباجة، وافتتح لبله وغيرها من المعاقل والحصون، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيرًا من الرفق والتسامح، والاعتدال في تطبيق الأحكام وفرض الضرائب.

موسى يعود إلى دمشق:

اتخذ موسى بن نصير أُهبته للعود إلى دمشق نزولاً على أوامر الخليفة، فنظّم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع، وجعل حاضرتها أشبيلية؛ لاتصالها بالبحر، وكانت حاضرتها أيام الرومان، واختار لولايتها ولده عبد العزيز، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك، كما استخلف على أفريقية عبد الله، أكبر أولاده.

وفي شهر ذي الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس ٧١٥م) قفل راجعا إلى المشرق وطارق معه، وفي ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف، وقد أفاضت الروايات الإسلامية في وصف ما غنمه المسلمون في الأندلس من الغنائم الجليلة والسَّبي الذي لا يُحصى.

ونقول: إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يُقدر، منها مائدة سليمان السالفة الذكر؛ وأما السبايا فيقال: أنه حمل منها ثلاثين ألفًا، بينهم مئات من أشراف القوط، والوصفاء المختارين، من ذوي الشباب الغض والجمال الباهر ذكوراً وإناثًا.

وذكر ابن القوطية[١] أن موسى بن نصير عاد ومعه من أبناء الملوك والعجم أربعمائة، وعلى رؤوسهم التيجان من الذهب، وفي أوسطهم مناطق الذهب.

ويقول المقري في «نفح الطيب»: «وجد العرب في طليطلة حين فتحوها من الذخائر والأموال ما لا يُحصى، فمن ذلك: مئة وسبعون تاجًا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة، ووجد فيها ألف سيف ملوكي، ومن الدر والياقوت أكيال، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يُحيط به وصف»[٢].

أيام موسى بن نصير الأخيرة:

وفي مصير موسى بن نصير بعد وصوله دمشق روايات كثيرة:

■ قيل: إنه وصل دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك، وقدم إليه الأخماس والغنائم، فأكرمه وأحسن إجازته.

■ وقيل: بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة، وأن سليمان غضب عليه ونكبه.

ويقول ابن الحكم[٣] أن موسى بن نصير مرّ بمدينة الفسطاط في أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين (٩٦هـ) في طريقه إلى دمشق، وقد توفي الوليد في منتصف جمادى الآخرة من هذا العام، أي بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف، ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تتجاوز في هذا

---

(١) «فتح الأندلس» لابن القوطية، (ص١٠).

(٢) «نفح الطيب» (جـ١) من (ص١٣٠: ص١٣٦).

(٣) «فتوح مصر» (ص١/٢)

العصر بضعة أسابيع، فإن الوقت كان يكفي لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته بأسابيع[١].

وتذكر رواية ابن الحكم: أن سليمان بن عبد الملك سخط على موسى بن نصير ونكبه، ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد في مرض موته، فكتب إليه سليمان ولي العهد أن يتمهل في السير؛ رجاء أن يموت الوليد بسرعة!! فيقدم عليه في صدر خلافته بما يحمل من التحف والغنائم الكثيرة، فأبى موسى، وجدَّ في السير حتى قدم والوليد حيّ فسلّم إليه الأخماس والغنائم، ثم توفي الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفًا أخاه سليمان على كرسي الخلافة، فغضب سليمان على موسى، وزاد في حقده عليه ما قدمه في حقه طارق ومغيث من مختلف التهم، وفي الحال أمر بعزله، واتهمه وبنيه باختلاس مقادير عظيمة من المال والتحف، واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان - وكان من المقربين وذوي النفوذ عنده - فيروى أن يزيدًا قال له:

«لم أزل أسمع عنك أنّك من أعقل النّاس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا، فقل لي كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار، وتيقّنت بعد المرام واستصعابه، واستخلفت بلادًا أنت اخترعتها، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك، ثم إنك علمت أن سليمان ولي العهد، وأنه الولي بعد أخيه، وقد أشرف على الهلاك لا محالة، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة، وأحقدت مالكك ومملوكك»[٢].

ومازال يزيد بن المهلب بسليمان حتى عفا عن موسى، وأعفاه من الغرامة

---

(١) د/ عنان (جـ١، ص٥٧).

(٢) انظر «تاريخ الأندلس» لابن القوطية (ص١٠: ١١)، «فتوح مصر» لابن عبد الحكم (ص٢١١)، «نفح الطيب» (جـ١، ص١٣٤).

الفادحة التي قضى بها عليه، ويُقال بل عفا عنه في حياته، ولم يعفه من الغرامة، وأن موسى استطاع أن يفتدي نفسه ببعض ما فرض عليه، وأن سليمان عفا عنه بعد ذلك[١] .

وأمّرَ ابنه عبد الله على أفريقية، وابنه عبد العزيز على الأندلس، ومهما كان من عفو سليمان عن فاتح الأندلس المخلص الغيور على دينه، وما قيل أنه كان يطوف أحياء العرب مع حُراسه؛ ليسأل بعض المال ليفتدي نفسه، والذي ما لبث على تلك الحال حتى توفيَ وهو في حالة من البؤس والذلة بوادي القرى في شمال الحجاز، حيث ينسب مولده، ووفاته في سنة (٩٧هـ) .

مهما كان من هذه الأخبار التي تثير في النفس شجونًا، فإن التاريخ يذكر وسيذكر أمرين مهمين:

أولهما: أن موسى بن نصير فاتح الأندلس لم يلقَ حقه من التكريم، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ما يشعر المرء بالم الجور والظلم الذي وقع على اسم الرجل وتاريخه وشخصه،وأن الخلافة لم تقدر البطولة في هذا الموطن حق قدرها، ولم تقدر عظمة هذا الفتح العظيم الذي غنمته على يد رجلها القدير ، قائدها الحكيم موسى بن نصير.

ثانيهما: أن موسى بن نصير كان من أعظم رجال الحرب والإدارة في القرن الأول للهجرة، وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تقلدها، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها، على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص في حكمه لإفريقيا، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعبًا شديد المراس، يضطرم بعوامل الانتفاضة والفتنة، وإذا كان موسى قد أبدى في معالجة الموقف

(١) «فتوح مصر» ابن عبد الحكم (ص٢١٣) .

وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدّة، فقد أبدى في الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب، وبراعة في سياستها وقيادتها، وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية، غزير العلم والأدب، متمكنًا من الحديث والفقه، عالمًا بالفلك، مُجيداً للنثر والنظم»[١].

هذا هو موسى بن نصير صاحب الفضل الأول في عبور الإسلام إلى أوروبا.

أيام طارق بن زياد الأخيرة:

لم تتحدث الروايات الإسلامية كثيراً عن أيام طارق بن زياد، إلاّ ما ذُكر على استحياء من أن سليمان بن عبد الملك كان ينوي تعيينه واليًا على الأندلس خلفًا لموسى بن نصير، إلاّ أنه عدل عن تلك الرغبة؛ حينما شرح له مغيث الرومي فاتح قرطبة كيف كان يتمتع طارق بن زياد في الأندلس بعظيم الهيبة والنفوذ، وذلك توجسًا من طمع طارق بالاستقلال بهذا القطر أو الإقليم النائي البعيد عن حاضرة الخلافة[٢].

وقد كان مغيث يحقد على طارق وموسى منذ الفتح ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما، وكان لوقيعته بهما ومساعيه ضدهما أكبر الأثر في استدعائهما إلى دمشق، ولا تذكر الرواية التاريخية شيئًا حاسمًا عن مصير طارق، فمنها من يقول أنه استُقبل في دمشق استقبالاً حسنًا، ومنها من يقول أنه لقي نفس المصير التعس الذي قيل إن موسى بن نصير لقيه، وأنه مات في فقر وضعة[٣].

مصير الكونت يوليان:

الكونت يوليان هو الرجل الذي مهد لفتح الأندلس، يقول الدكتور عنان في مصيره[٤] : «لم تُشر الرواية الإسلامية إليه، وفي بعض الروايات أنّه عاد بعد

---

(١) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٣٣، ١٣٤).

(٢) المصدر السابق (جـ٢، ص٥٥).

(٣) «دولة الإسلام» د/عنان (جـ١، ص٦٠) الهامش.

(٤) «دولة الإسلام في الأندلس» (جـ١، ص٦٠، ٦١).

الفتح إلى سبته وأُقطع ما حولها من الأراضي، وقُلِّدَ إمارتها؛ جزاء خدماته، ولكنه بقي نصرانيًا هو وبنوه الأقربون، ثم دخل عقبه في الإسلام بعد ذلك.

وتقول الرواية الكنسية الإسلامية أنه قُتل بين مواطنيه في معركة نشبت بينهم وبينه، أو أنه قُتل بعد ذلك بأعوام في ولاية الحر الثقفيّ بيد العرب لريبة في ولائه، وتقول هذه الرواية أيضًا أن العرب أعدموا ابني وتيزا وأفراد أسرته لمثل هذا السبب.

وهذا ما تنفيه الرواية الإسلامية، بل وتؤكد عكسه تمامًا، فالمصادر الإسلامية تُجمع كلها على أن العرب أحسنوا معاملة إيفا أو أيبا، وسيزبوت ابني وتيزا وعمهما أوباس، فأما أوباس فقد عُيِّن كما تقدم مطرانًا لطليطلة، وأُقطع إيفا وسيزبوت ما كان لأبيهما من الضياع، ثم توفي إيفا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن ابنة تُدعى سارة وولدين صغيرين، فاغتصب سيزبوت ميراثه وضياعه، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى دمشق، وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأنصفها وقضى لها بردّ ميراث أبيها، وبعث بذلك إلى والي الأندلس أبي الخطار الكلبي، وتزوجت سارة في دمشق من عيسى بن مزاحم وهو سيد عربي، ورُزِقت منه بولدين هما إبراهيم وإسحاق، ثم عادت إلى الأندلس، وأحرز ولداها مكانة ممتازة، وإليها ينتسب ابن القوطية القرطبي المؤرخ صاحب «تاريخ الأندلس»، نِسْبَةً إلى لقبها العربي وهو سارة «القوطية»[1].

(١) المصدر السابق.

الأندلس بعد الفتح الإسلامي

في دولة كانت ترزح تحت نير الظلم والاضطهاد، وقد كانت حتى عهد الفتح الإسلامي ترزح في غمار مرهقة من الجور والعسف، وكانت الأقليات المتسلطة من الأمراء والنبلاء تحكم شعبًا بأسره وتستغله أشنع استغلال، في وسط هذا كل جاء الإسلام؛ ليقضي على هذا كله، فيحمل بين يديه العدل والحرية والمساواة إلى الناس جميعًا، وليعطي كل ذي حق حقه، ويقضي على البغي والظلم.

وقضى الفتح الإسلامي على سلطان الطبقات المتسلطة من الأمراء والنبلاء، فتنفس الشعب الصعداء، وعندما وضع المسلمون الجزية فرضوها بالمساواة والاعتدال والعدل، بعد أن كانت الضرائب تُفرض بحكم الهوى والجشع، وأمنَ الناس على حرياتهم وحياتهم وأموالهم، وترك الفاتحون (من أهل الإسلام) لرعاياهم (أهل الأندلس) تركوا لهم قوانينهم يتبعوها، وقضاتهم وقضائهم، واختاروا لهم حكامًا من أبناء جنسهم.

وعامل المسلمون النصارى واليهود بالتسامح، فلهم دينهم وعقائدهم وشعائرهم، وكل ما فُرض عليهم هو أداء الجزية، ومن دخل منهم الإسلام سقطت عنه الجزية، وأصبح كالمسلم سواء بسواء في جميع الحقوق والواجبات، فالعرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح، فلم يرهقوا أحدًا في شئون الدين[1].

وقد عني الفاتحون عقب الفتح بتنظيم شئون الحكم والإدارة، فقُسِّمت أسبانيا على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط، في البداية إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل منها حاكم يعينه الحاكم العام، ويُسأل أمامه مباشرة عن أعماله وشئون إدارته. أما حاكم الأندلس أو واليها العام، فكان تعيينه في المبدأ راجعًا إلى حاكم أفريقيا يختاره بموافقة الخليفة.

---

(١) «الإسلام في الأندلس» رينهرت دوزي (جـ١).